نظامنا الاجتماعي

(٢) الفرد

لا تعنينا حقيقة الفرد اللغوية او المنطقية لانها اجنبية عنا لا محل لها عندنا — ولا نخال احداً من القراء يجهلها من هاتين الجهتين حتى يتعرّفها او يتبصّرها في المعاجم اللغوية والاسفار المنطقية . وانما تعنينا حقيقة الفرد الاجتماعية باعتبار انهُ احد اعضاء الاسرة او الامة او الدولة او الهيئة الاجتماعية البشرية — لذلك كان حقّاً علينا ان نبحث فيما يجب على الفرد حيال اسرته وامته والناس اجمعين

اما واجباتهُ حيال خالقهِ من معتقدات وعبادات فمن مباحث الديانات وما هي في شيء من الاجتماعيات . وقد وسعتها مؤلفات الكلاميين ومصنفات المتفقهين

واذا كان يصعب على المهندس البارع ان يختار متانة القصر المشيد الا اذا كشف عن كل نوع فيهِ من حجر وخشب وحديد فانهُ يصعب كذلك على الاجتماعي أن يعرف مبلغ رقي الامة او انحطاطها ويشخص داءها ويصف لها دواءها . الا اذا كشف عن افرادها لان الفرد اساس الامة

وانّى لبناء الماهر ان يزأب صدعاً من جدار يريد ان ينقضّ الا اذا استقطع الحجارة من محاجر نوعها واستورد الاخشاب من غابات صنفها وكذلك يفعل في حديدها وقرميدها . وانّى للاجتماعي ان يلمّ شعث امة الا اذا كان عالماً بفردها واقفاً على اهوائهِ بصيراً ببدائهِ ولاسيما اذا تنوعت طوائف الامة وتعددت ملاها وتغايرت نحلها وتباينت امزجتها وتخالفت ديانتها ومذاهبها وتناكرت لهجاتها وتزايدت احزابها وتطاحنت اربابها وتخاذلت اصحابها . وانى للطبيب الماهر ان يهتدي الى مواطن الداء اذا جهل عمل الاعضاء فلا ريب ان العضو الذي لا يؤدي عملهُ تماماً كما ينبغي يكون مريضاً فيعالجهُ

واصعب ما يصعب على الطبيب تعرّف الداء الذي بالاعضاء الخفية كالقلب والوثة وعضو التفكير الى غير ذلك مما اضطّت عليهِ احناء الضلوع واشتمل عليهِ الرأس من الحواس ومصادر الشعور والاحساس — ولولا نباهة شأن الفرد ما كنا قد افردنا لهُ مقالاً لان خير الفرد وشرّهُ يؤثران في المجموع تأثيراً ظاهراً وان مثلهُ في الخير كالزهرة الفيّاحة في روض معشوشب يسعى اريجها في ارجائهِ وينشق شذاها في

انحائه او الباريّ في الاسواق العامة ان لم يصب الناس من عطره يعلقهم من ريحه

وان مثله في الشرّ كخيفة ملفاة في جنة من الرياحين قد غلب نتنها على عبيرها او كالحدّاد ان لم يحرق الناس بشرره يؤذهم بدخانه . وان حجراً واحداً يسقط في البحيرة يحركها كلها . واكثر موضع فيها اضطراباً سقط الحجر . وان السارق الذي يسرق مالاً لاحد ثم يقذفهُ في اليمّ انما يحرم الجماعة الانتفاع به لا صاحبهُ فقط

كذلك القاتل الاثيم الذي يقتل النفوس البريئة التي حرّم الله قتلها انما يقتل في الامة مواهب كامنة واعمالاً مستقبلة وآثاراً صالحة في بناء مجدها وما كان ضرهُ لو أمهلها حتى تؤدي ما يجب عليها لهُ ولامتهِ وعشيرتهِ « من اجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل أنهُ من قتل نفساً بغير نفس او فساد في الارض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن احياها فكأنما احيا الناس جميعاً » . فلا يستهان بعمل الفرد في الجماعة فعالم ذو همة يحيي امة بل العالم اجمع مثل (جنس وط) مخترع الآلة البخارية و (ماركوني) مخترع (التلغراف اللاسلكي) . كما يكون الفرد سبباً في شقاء العالم كله — وان الحرب العالمية الكبرى التي لبثت خمس سنين تقريباً فافزعت الطير في الهواء والسمك في الماء والانسان في برهِ وبحرهِ . وسفرهِ وحضره . الى ان استعاذ منها النيران وسئمها الجديدان لم تكن الا اثر اعتداء فرد صربي مهتلس اللب يدعى برنسيب على ولي عهد النمسا الارشيدوق فرنز فرديناند بالبوسنة في اليوم الثامن والعشرين من يونيه سنة ١٩١٤ — (ومعظم النار من مستصغر الشرر)

ولا صلاح للاسرة الا بصلاح فرادها ولا فلاح للامة الا بفلاح أسرها ولا ارتقاء للدولة الا بارتقاء شعوبها ولا سعادة للناس كافة الا بسعادة دولها وهيهات هيهات لما يؤملون فما للسعادة سبيل في دار الشقاء

واذا وُفق الاب الى تربية ابنائهِ على الوجه الاكمل فاحيا في نفوسهم طائفة من الفضائل واماتَ منها لفيفاً من الرذائل وعلمهم علماً نافعاً وثقفهم تثقيفاً ناجعاً فلا جرم انهُ يوجد أسرة جمّة المحاسن صالحة للبقاء

واذا تكونت أسر وعشائر على هذا النظام البديع فلا ريب أن تكوّن شعباً حيّاً لا يأتيهِ الموت من بين يديهِ ولا من خلفهِ — ومثل ذلك الاب الطيب الرشيد كشجرة طيبة اصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي اكلها كلّ حين باذن ربّها . ومثل الأب الخبيث السفيه كشجرة خبيثة اجتثّت من فوق الارض ما لها من

قرار لأن ابناءه بتربيته الفاسدة تفقد راحة الاستيطان في كلّ مكان . وهم أموات غير أحياء أما كفانهم فثيابهم وأما قبورهم فأبدانهم. إنهم الاّ كالانعام بل هم أضل سبيلا

الفرد يرث ملكاته وطبائعه عن جنسه وقومه وهذا هو معنى الجماعة فهي تتبّع السنن العامة للحياة الأدبية والمادية

وهل ينبت الخطيّ الاّ وشيجهُ وتغرس الاّ في منابتها النخلُ

وكما أن النبات مؤلف من جذور وأوراق وسيقان وأفنان وكلّ واحد منها يعمل منفرداً لما فيه بقاء حياة المجموع كذلك الامة مؤلفة من افراد اختلفت صفاتهم وتنوعت معارفهم وتشعّبت مذاهبهم وكلّ فرد منها يسعى من حيث يشعر أولا يشعر في بقاء حياة المجموع وحفظ كيانه وهذا دليل قاطع على التعاون الانسانيّ — ولذلك يستحيل القول بأن حالة (الانسان الأوّل) كانت انفراديّة ولم يعش آدم وحدهُ بل سكن الى زوجته حوّاء وتعاونا في امور الحياة الدنيا — ان بين الفرد والجماعة صلة متينة وارتباطاً شديداً وتعاوناً تامّا بحيث يمتنع من الوجهة العلمية ان يوجد أحدهما اذا فقد الآخر وهذا التعاون يمكن ارجاعهُ الى مبدأين

الاول — توزيع الأعمال بين الأعضاء المختلفة وتعيين منهج كل عمل

الثاني — وجود غاية تسعى لها الأعضاء من طريق التعاون . وهذان المبدآن يوجدان في كلّ جماعة من جماعات الانسان والحيوان — وذلك لأن توزيع الاعمال اذا لم يوجد في جسم فمن العبث البحث عن أسباب وجود كلّ عضو فيه ولكان كالعضو الذي لا عمل لهُ فيكون قد خلق عبثاً وتعالى الله عن ذلك علوّاً كبيرا — ألم تر إلى الساعة الدقّاقة قد تكونت من آلات متعدّدة كل آلة على حدتها تؤدي عملها لتديم حركتها منتظمة واذا اختلّت آلة واحدة من ميثاقها فقد اختل نظام الساعة كلها ووقفت حركتها مرة واحدة أمّا الغاية من الساعة فمعرفة الوقت كما لا يخفى . انظر الى اعضاء النبات فأن بعضها عمله امتصاص عصارة التراب وبعضها همهُ استنشاق الهواء وبعضها يقوم بتوصيل الماء الى أوراقه وأفنانه وأزهاره كذلك شأن الناس اذا وزعوا الاعمال فيما بين فيرادهم فبعضهم للزرع وآخر للنسج وفريق للبناء وطائفة للتعليم وشرذمة للطب وجماعة للري وهكذا . ومع ان كل عضو في المجتمع الانسانيّ لهُ عمل خاصّ فأنهُ يخدم بقيّة الاعضاء كما تخدم المعدة بغذائها سائر اجزاء الجسم واعضائه لتتحرك فتؤدي أعمالها — كذلك تلك الاعضاء كاليد والفم والأسنان

تخدم المعدة لغذائها فكل عضو آذن خادم ومخدوم فالزارع خادم للحاكم والحاكم خادم للزراع والسيد خادم لخادمه وكل عضو من اعضاء الجماعة عون لزملائه . صدق المعرّي فيما قال

الناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وان لم يشعروا خدم

الآن حصحص الحق وعرفت أن الفرد لا يعيش منفرداً . وهنا نتساءل قائلين اذا كان الغرض من توزيع الأعمال على الافراد بقاء الجماعة فما الذي يجبر الانسان على أن يلقي بنفسه الى التهلكة كالجندي مثلاً في حومة الوغى وما العامل القهري الذي يدعى الانسان نفسهُ فيؤدي بحياته دفاعاً عن المجتمع الذي يعيش فيه ؟ فالجواب أنهُ متى اندمج في الجماعة كان تحت تأثير روحها العام فيندفع بعواملها غير مختار وفي هلاك البعض حياة المجموع . فالنبات الغزير لا يحيا حياة طيبة الا بفناء بعضه قبل أن يبلغ اشدّهُ والا مات ولذا تجن ثمراتهُ (هو الدوح ان تشذب نواحيه يعظم)

ما ينتج عن ذلك التعاون — (١) اذا تفهّمنا جيّداً ضرورة هذا التعاون بين النوع الانساني أدركنا بادي الرأي أنهُ لا يجرؤ احد على الادّعاء بأن لهُ وحده حقّ التمتع بجميع المنافع الجسمية والعقلية والأدبية اذ كلّ أولئك نتيجة عمل من تقدّمهُ ومن عاصرهُ فهو مدين بها للانسان ولذلك يولد المرء وعليه دين عظيم للمجتمع الانساني وانا نورد للقرّاء هذه القصة المجملة شاهداً ودليلاً

في ذات يوم مرّ ملك بفلاّح كان يغرس نخلاً وهو في مساء حياته فوقف يتعجّب من سذاجة ذلك الفلاّح ومن طول ما امّل في الحياة والموت باسط لهُ ذراعيه بالوصيد فقرأ ذلك الشيخ الفاني في وجه الملك آية تعجبه وفهم معناها فقال يا مولاي (زرع من قبلنا فاكلنا وكذلك نحن نزرع ليأكل من بعدنا)

(٢) ان التعاون البشري وان كان خيراً من وجوه الا انهُ قد يكون شراً من وجوه أخرى اذ يجعلنا وارثين شقاء من سبقنا وشركاء في اغلاط من عاشرنا من ابناء جلدتنا فاذا وفّق العقلاء الى النصح والارشاد وكانت الامة مهيأة للخير صالحة لهُ نجت من شرور تلك الاغلاط وعواقبها والا عميت عن الخير وظنت الرشد غيّا والغيّ رشداً حتى تكون حرضاً او تكون من الهالكين

عبد الرحيم محمود
المدرس بمدرسة فؤاد الاول الثانوية والمعلمين الثانوية